حول قضايا التعريب

الرأي الآخر حول المنهج التطبيقي للتعريب(*)

الأستاذ غبوش الضاوي
عضو اللجنة السودانية للتعريب
كلية البيطرة / جامعة الخرطوم

المقدمة :

كانت يوما لبلاد وادي النيل عدة حضارات سادت ثم بادت ولم يبق منها اليوم إلا آثارها التي تجلب السواح من شتى بقاع المعمور. وقامت أيضا في بلاد ما بين النهرين حضارات لا تضاها سادت ثم بادت ولم يبق منها إلا الأطلال. وفي صدر الاسلام انبثقت حضارة العرب فاكتسحت العالم شرقا وغربا وأذهلت سكان الدنيا قاصيها ودانيها. قدمت للعالم الكثير من شتى ضروب المعرفة العلمية والأدبية. غير أن العرب ركنوا للدعة وجنحوا للهو والفخفخة فأضاعوا الكثير من التراب والتراث.

وبالتدرج، كانت صحوة أوربا حيث بنت حضارتها على أنقاض حضارة العرب. اقتبس الأوربيون، بل سرقوا الكثير من حضارات بلاد العرب في شتى ضروب المعرفة. وتلاحقت اكتشافات واختراعات العلم الحديث فغيرت مجرى التاريخ وما زالت تترى بصورة مذهلة. سجلت جميع المصطلحات الخاصة بالاكتشافات والاختراعات العلمية الحديثة إما باللغة الافرنجية الأم وهي الاغريقية اللاتينية القديمة أو بلغاتهم الحديثة التي هي أصلا مشتقة من الاغريقية اللاتينية القديمة. وتم تقنين التعريب العلمي والأدبي إذ أصبح بسيطا مختصرا ومعبرا عن الحقيقة، ودكت معاقل الاسهاب والتعابير الوردية والخطب الرنانة التي تعتمد على العواطف والانفعالات والخيال.

وجاءت فكرة الاستعمار، فغزت دول أوربا بحضارتها الجديدة معظم بلاد آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية، وهي ما تعرف اليوم بدول العالم الثالث أو الدول النامية، والعالم العربي الكبير جزء منها. بعض هذه الدول فقدت تراثها ولهجاتها إلى الأبد وانخرط أبناؤها في صفوف الفرنجة يقلدونهم في كل شيء. أما لغاتهم أو لهجاتهم الأصلية فقد لا يتحدثها اليوم إلا قلة من الأميين منهم. وقد كان العرب أكثر حظا من غيرهم، إذ لم يندثر تراثهم، ربما لأنه كان أقوى من أن يندثر رغم المحاولات الجادة لابادته في كثير من الدول العربية وعلى رأسها الجزائر (أرض المليون شهيد). ولكن تغلغلت لغات الفرنجة وغزت كل

(*) كلمة الوفد السوداني في المؤتمر الخامس للتعريب، عمان (الاردن)، ديسمبر 1985.

مرفق بل وكل بيت من بيوت العرب، وصارت لغات المعرفة التي يألفها كل دارس ومتعلم ومثقف.

وفي كثير من البلاد العربية قد لا يُعد المرء مثقفا إلا إذا نطق ببعض الكلمات أو الجمل أو التعابير الافرنجية أثناء حديثه بالعربية، وهذه لعمري عقدة نفسية مستعصية الحل ! وإن زرت الجامعات والمعاهد العليا بالوطن العربي لسمعت عجبا، فهنالك كلمات كثيرة لا هي بالعربية ولا بالافرنجية مثل : لكاشر وشنيات ودبرسة وغير ذلك، هذا بالاضافة إلى التعبير بالافرنجية بين الفينة والأخرى كلما عجز الطالب مثلا في إيجاد التعبير العربي الدقيق.

وقبل أن يرحل الاستعمار عن أرض العرب دق اسفينا في قلب الأمة العربية وذلك بتجميع ما تبقى من صهاينة أوربا وتوطينهم في أرض فلسطين، وكأن العرب كانوا مسئولين عن مذابح اليهود في معسكرات النازية. ولكن الغرض الأساسي من زرع الكيان الصهيوني كان وما زال هو محاولة التحكم التام على الأمة العربية كلها بوطنها الكبير وخيراتها الجمة وموقعها الممتاز في ملتقى قارات ثلاث وتراثها العربي الثر والديني الذي لم تحظ بمثله أمم العالم الأخرى. ولا ننسى أن العرب بتراثهم هذا يشكلون منافسا خطيرا لأوربا، والأوربيون يفهمون هذا جيدا. ولكن الحضارة ليست حكرا أو ملكا لأحد، وقد يأتي اليوم الذي تنتقل فيه إلى أرض العرب مرة أخرى... والزمن دولاب كما يقول المثل.

هَبَّ العرب من رقادهم الطويل بعد النصف الثاني من القرن العشرين فوجدوا المعرفة، ان أرادوا أن ينهلوا من العلم الحديث، قاصرة على لغات أوربا، ومن لم يتعلم لغة أوربية حية كتب عليه الفناء في عالم اليوم، إذ أن اللغة الانجليزية وحدها تشكل 60% من المراجع العلمية في العالم، وتتفاوت نسبة الفرنسية والألمانية والايطالية والروسية واليابانية. واليابان (وربما الصين الشعبية أيضا) هما الأمتان الوحيدتان اللتان نجحتا في تطوير لغتيهما لتُصبحا لغتي علم حديث رغم أنهما ليستا مشتقتين أساسا من اللغة الاغريقية اللاتينية القديمة، وذلك يعزى لتقدم العلم النابع من تراثهما. ومع هذا تنتشر لغات الفرنجة بهاتين الدولتين وبصفة ملحوظة في اليابان. أما العربية فقد قال عنها الفرنجة إنها ليست لغة علمية حديثة لأنها لا تشكل من بين المراجع والمؤلفات العلمية الحديثة أكثر من 0,3% ولكن، هكذا كانت الانجليزية يوما، وكانت الفرنسية، بل وكانت كل لغات العالم حتى طورت بعض هذه اللغات فصارت تواكب وتسع العلم الحديث بكل مصطلحاته وتعابيره الدقيقة. أما كيف طورت، فقد تُركت الكلمات الفخمة القديمة والتعابير المُسْهَبة الملتوية المعقدة التي اعتمدت على الخيال وقام بتأليفها فحول كتّاب الأدب الأوربي أمثال شكسبير، واستعيض عنها بإنشاء قواميس ومراجع ومؤلفات أخرى ذات كلمات وتعابير بسيطة وسهلة ومقننة يستعملها معظم الناس في حياتهم اليومية. ألفوها للصغار والكبار، لتلاميذ المدارس ولطلاب الجامعات والمعاهد العليا وللباحثين ولكبار العلماء، كل حسب مقدرته ومقامه. هكذا شق الفرنجة طريقهم إلى الحضارة والمعرفة بلغاتهم. أما نحن فكيف نشق طريقنا ؟ أولا كلنا نؤمن بالتعريب هدفا ساميا، ولكن كيف ؟ هنالك صعاب جمة يجب أن نجابهها بالحزم والعزم والاصرار إن أردنا النجاح في مسعانا :

(ا) بُعْد اللهجات العربية العامية عن اللغة العربية الفصحى. فالعربي الذي تعلم الانجليزية أو الفرنسية مثلا يستطيع وفي معظم الأحيان فهم حديث الفرنجة الذين يتكلمون إحدى هاتين اللغتين حتى ولو كان هؤلاء أميين. ولكن هل يفهم المستشرق الذي يدرس اللغة العربية الفصحى لهجات العرب العامية التي يتحدثون بها اليوم ؟

(ب) وهنالك مشكلة أخرى ألا وهي اختلاف هذه اللهجات من قطر إلى قطر، بل وحتى في داخل البلد الواحد.

(ج) الفرنجة لهم لغتهم الأم (الاغريقية ــ اللاتينية القديمة) تُشتق غالبا منها المصطلحات العلمية الحديثة ولهم أيضا لغاتهم التي طُورت وقُننت تعابيرها لتواكب العصر، ولهم مؤلفاتهم الجمة في هذا المضمار كما أسلفنا. أما العرب فلغتهم الأم هي العربية و لم تطور تعابيرها أبدا لتواكب العصر، بل ظلت كما هي منذ الجاهلية. كما وأن المؤلفات في هذا الصدد مازات ضنينة.

(د) الفكر العربي والبيئة العربية واللغة العربية بتراثها كلها تختلف اختلافا جذريا عن الفكر الفرنجي وبيئة الفرنجة ولغاتهم وتراثهم.

(هـ) وفي عالم اليوم أصبحت معظم المصطلحات العلمية في شتى ضروب المعرفة واقعا علميا معاشا لكل إنسان على وجه الكرة الأرضية. ولكن، هذه المصطلحات ليست اليوم ملكا لأحد ولا يستطيع دارس أو ممارس أو باحث أو عالم أن يبتعد عنها كثيرا لا سيما في الوقت الراهن. أما التعابير الدقيقة فهي مستخلصة من اللغات العلمية بغرض الدرس والممارسة والبحث وغير ذلك، وكل الأمم تسعى جادة لتطوير لغاتها لتفي بهذا الغرض. فالمهم هو اتفاق العرب على استخدام المصطلحات الموحدة المطوعة بتعابير عربية دقيقة وسهلة ومختارة.

(و) ولكيلا يعيش العرب بمعزل عن المعرفة الحديثة ولكي ينهلوا منها ما شاء الله لهم فإن إجادة إحدى لغات العصر العلمية الحية عل الأقل بجانب العربية واجب تقتضيه الضرورة في الوقت الراهن.

(ز) الفرنجة يكتشفون ويخترعون ويصنعون المصطلحات العلمية والتعابير الدقيقة بلغاتهم، ولا يمر يوم إلا ويكون هنالك جديد في عالم المعرفة. أما العرب فهم يتلقون المعرفة جاهزة، ولكن بلغات غيرهم، مثلهم في ذلك مثل الأمم الأخرى. فإن أرادوا اللحاق بركب الحضارة والرفع من شأن لغتهم فعليهم بالعمل الجاد الدؤوب في البحث والتأليف والنشر وتطوير اللغة لتواكب العصر.

(ح) الأساتذة العرب والباحثون والمهنيون معظمهم تلقوا المعرفة بلغات أجنبية جية. وقد يقول بعضهم اننا نستطيع التعبير بتلك اللغات أفضل مما نعبر بلغتنا الأم ! والذنب ليس ذنبهم، ولكن عليهم بالتراجع عن تلك الأفكار، فلا خير في أمة تستظل بتراث الآخرين.

(ط) وهنالك تدنٍ واضح في مستوى اللغة العربية على نطاق الجامعات والمعاهد العليا ببعض البلدان العربية، ولهذا التدني أسبابه. فإن أردنا أن يكون للغتنا شأن فعلينا بتقوية دروس اللغة العربية بمراجع ومؤلفات وقواميس ممتازة حديثة تناسب كل مرحلة دراسية بالاضافة لاختيار الأكفاء من المعلمين لتدريس الطلاب، مع إلغاء ما يُسمى بتخصص الصغار على نطاق المدارس الثانوية ــ أقصد بهذا تقسيم الطلاب ومنذ نعومة أظفارهم إلى مساق علمي وآخر أدبي. فالمعرفة لا تُجزأ في هذه المراحل، ونحن نسعى لتكوين الشخصية المثقفة القادرة لا المهنية ضيقة التخصص. نريد لخريج المدارس الثانوية أن يمتاز في اللغة العربية والجغرافيا والفيزياء والكيمياء والاحياء والتاريخ والدين والرياضيات بشتى فروعها واللغة الأجنبية والفنون والتربية الوطنية دون تفريق، قبل أن يختار مجال تخصصه في الجامعة أو المعهد.

(ي) الترجمة أم التعريب ؟ هل هما سيان أم يختلفان ؟ في رأيي هنالك بون شاسع بين الاثنين، ولكني لا أريد أن أُقحِم نفسي في وضع التعريف الدقيق لكل منهما وإثارة الجدل حول هذا الموضوع. فالترجمة لا تمت لواقع الأمة العربية بشيء وقد تؤدي في النهاية إلى سحب البساط كلية من تحت أقدام العرب، فهي لا تلتصق لا بالتراث العربي ولا بالفكر العربي ولا بالبيئة العربية. إنها مجرد نقل المعرفة من المؤلفات المخطوطة بلغات أجنبية إلى اللغة العربية. وقد تكون الترجمة دقيقة أوقد لا تكون، وقد تكون حرفية أو بتصرف، والكل عند العرب صابون، أو كما يقول المثل. وهنالك نوعان من الترجمة :

1. ترجمة المصطلحات العلمية.
2. ترجمة التعابير الدقيقة التي لا تنفصم عن المصطلحات.

فالأولى أصبحت واقعا معاشا كما أسلفنا، على الأقل في الوقت الحاضر، ولكن المهم جدا هو اتفاق علماء العرب على وضع هذه المصطلحات بطريقة موحدة ترضي طموحات كل العرب من المحيط إلى الخليج. أما الثانية فتعتمد على تطوير اللغة العربية بتعابيرها الجديدة المختارة بطريقة منضبطة ودقيقة وموحدة لكي تصبح لغة علمية بحق وحقيق، معترفا بها عالميا وذات قواميس ومؤلفات ثَرّة لخدمة هذه الأهداف. ويجب أن نفصل بين التعابير العربية الأدبية المسهبة التي تُشنف الآذان وتحرك الوجدان وبين التعابير الواقعية البسيطة المختارة الدقيقة في معناها.

ولكن هل تفي الترجمة بهذين الغرضين رغم مساوئها التي ذكرناها ؟ قد تفي بالغرض الأول على نطاق محدود ولكنها حتما لا تفي بالغرض الثاني والذي هو في رأيي لُبُّ المشكلة وأصعب بكثير من ترجمة المصطلحات، وهو كذلك سبب أساسي في قضية التعريب برمتها. فإذا كانت هذه هي الترجمة فكيف يكون التعريب ؟ كلمة التعريب تقودنا إلى التفكير عن الأصالة العربية ــ الجذور العربية المرتبطة بالتراث عبر قرون الزمان. تقودنا إلى تاريخ الأمة العربية بكل أمجادها وإلى الفكر العربي وإلى البيئة العربية. إذن هدف الأمة العربية الأسمى هو التعريب وليس الترجمة، التعريب النابع من صميمها والمرتبط بها وبتراثها وفكرها وبيئتها قلبا وقالبا. ولا مانع من اقتباس المعرفة أينما كانت ولكن تُمَحص هذه المعرفة المكتسبة وتُدْمَج مع المعرفة الأصيلة ويتم التأليف عربيا أصلا ومحتوى. ومن هنا فإن علماء الأمة العربية بما لهم من خبرات أصيلة ومكتسبة مدعوون قبل غيرهم للبحث والتنقيب والتأليف والنشر لاثراء المعرفة عربيا في شتى المجالات ــ العلمية منها والأدبية، ولا مكان لمتقاعس أو كسول، فالأمم لا تبنى بالتواكل والفاقة.

من ثم فقد وصلت إلى قناعة من أن التعريب الذي ننشده لا يتم إلا إذا بدأنا من القاعدة، من الأساس وذلك برصد ودراسة وغربلة ما تبقى لنا اليوم من كلمات وتعابير عربية أصيلة. نحن اليوم في عصر تدهورت فيه لهجاتنا العربية وابتعدت كثيرا عن الفصحى وذلك بفعل الزمن وبفعل تغلغل الكثير من كلمات وتعابير العَجَم. فاللغة العربية الفصحى أصبحت في واد واللهجات العربية الكثيرة في وادٍ آخر، وكل منا يدعي قرب لهجته للعربية أكثر من غيره، والحقيقة لا أحد.

والذين يكتبون أو يترجمون يعتمدون فقط على ملكتهم في اللغة العربية الفصحى بكلماتها الضخمة وتعابيرها الشائكة التي قد تكون غير متداولة حاليا. هذه الكلمات وهذه التعابير يتوارثها كتابنا وخطباؤنا جيلا بعد جيل دون أن يطرأ عليها أي تغيير. إنها نفسها التي استخدمها الأجداد في الجاهلية أو صدر الاسلام. والفالح من يأتي بأكبر قدر من الكلمات الفخمة والتعابير الشائكة التي تعكس مدى اطلاعه

وملكته دون أن تكون هنالك في كثير من الأحيان زبدة للحديث.

وهذا ما جعل القارىء أو الدارس أو الباحث في حيرة من أمره. بعض هؤلاء تاه في بحور الكلمات والتعابير والبعض الآخر تمنى لو استخدم لغة أخرى أدق تعبيرا يسهل فهمها والتعامل معها. والمسألة برمتها هي أن العربية لم تطور حتى الآن تطورا جادا لتصبح لغة علمية مواكبة للعصر ذات تعبير دقيق يعطي القارىء الفكرة والحقيقة قبل المجاز والعاطفة والانفعال.

من هنا فقد تكونت في نفسي قبل سنوات هواية رصد وغربلة الكلمات والتعابير العربية الأصيلة المتداولة اليوم ببعض المناطق بالسودان. ثم تطورت الهواية إلى بحث جاد في السنوات الأخيرة، والحق يقال فقدد جمعت الآلاف من الكلمات والتعابير المتداولة في شكل أسماء وأفعال وحكم وأمثال وغير ذلك. فوجدت أن بعض هذه قد احتفظت بشكله العربي السليم، والبعض استبدلت حروفه أو انحرف قليلا والبعض الآخر انحرف كثيرا ونوعا آخر مشكوكا في انتمائه للغة العربية أساسا. وجدت كلمات تصلح لأن تكون مصطلحات علمية وتعابير متداولة تصلح للاستعمال الدقيق في شتى ضروب المعرفة.

من ثم طرأت الفكرة : لو أننا كوَّنا فرقا من العلماء والباحثين في كل بلد عربي لرصد وغربلة الكلمات العامية، المتداولة اليوم لخرجنا في النهاية برصيد ضخم يصلح أساسا لوضع اللبنة الأولى في طريق التعريب الصحيح. فإذا ما اجتمعنا سويا أدلى كل منا بدلوه، وبهذا نستطيع تصنيف كل ما جمعناه كالآتي :

أ. الكلمات والتعابير التي انحرفت نقومها.
ب. الكلمات والتعابير الدخيلة نلقي بها في البحر.
ج. الكلمات والتعابير العربية الصرفة ـــ هذه لا غبار عليها.
د. الكلمات والتعابير المتداولة في كثير من الأقطار العربية، نحتفظ بها حتى لو لم نجد لها أصلا لانها قد تكون عربية لم ترصد بعد..... وكلام العرب كثير.
هـ. الكلمات والتعابير التي قد تأتي من بلد واحد ومشكوك في عروبتها نلقي بها في البحر أيضا..... وهلم جرا.

والبقاء في النهاية للكلمات والتعابير العربية المتفق عليها وهي التي تصلح لأن تضمن في قاموس أو قواميس أولية أو قاعدية أو أساسية مشتركة بين جميع الدول العربية توحيدا للمصطلح والتعبير.

والأسباب التي حدت بي لمثل هذا التفكير ألخصها في الآتي :

أ. اللغة العربية الفصحى هي في الأساس لغة قريش التي نزل بها القرآن الكريم. وآنذاك كانت لقبائل العرب الأخرى لهجات عربية قد تختلف قليلا عن لهجة قريش، ونسوق مثالا لذلك كلمة أعطى القرشية وأنطى لبعض القبائل الأخرى، والنصان عربيان صحيحان، ولكن كلمة أعطى أصبحت هي السائدة لانها ذكرت في القرآن الكريم. والشعوب العربية اليوم تنحدر أساسا من قبائل العرب المختلفة قرشية أو غير قرشية. وهذا هو السبب الأساسي في اختلاف اللهجات والنطق على نطاق الأمة العربية اليوم. والمهم في النهاية هو الاتفاق على توحيد الكلمة المتداولة في الوطن العربي سواء كانت قرشية أو غير ذلك.

ب. هنالك الكثير من الكلمات والتعابير العربية ورد ذكرها في أحاديث وأشعار قدامى العرب وأصبحت اليوم بفعل الزمن غير متداولة، فهذه

قد نستعيض عنها بأخرى متداولة حاليا لكي يسهل الفهم للقارىء.

ج. الكلمة العربية الأصيلة المتداولة عاميا اليوم خير لنا من الكلمة العربية الغربية التي تحتاج لتفسير وقد ربما تعطي أكثر من معنى. والأخيرة هذه نتركها لكبار الأدباء والعلماء.

د. ولا ننسى أن بعض الكلمات في دول عربية قد تكون لها معان محلية تختلف عن معانيها في بلاد عربية أخرى وقد تثير الدهشة أو حتى الضحك، وهذه يستحسن الاتفاق عليها قبل تضمينها في القاموس الأولي كمصطلح أو كتعبير.

فإذا ما فرغنا من إنشاء القاموس الأولي أو الأساس، وهذا بالطبع لا يأخذ وقتا طويلا، نستطيع بعد ذلك الانطلاق لبناء أو إنشاء قواميس متقدمة ذات أساس أو قاعدة عربية أصيلة ومتينة نابعة من صميم تراث هذه الأمة.

وانطلاقا من هذا الفهم فقد رصدت الكثير من الكلمات والتعابير العامية المتداولة في شتى أوجه الحياة من أفواه الناس بإقليم كردفان في أواسط السودان.

تسكن هذا الاقليم قبائل فزارة وجهينة وبعض من قبيلتي خزام وكنانة بالاضافة إلى قبائل أخرى. القوم بدو ظلوا يمارسون الرعي وحياة الترحال منذ فجر التاريخ. فقراؤهم ومن عجزوا منهم من حياة الترحال استقروا في قرى ثابتة أو شبه بدوية يمارسون فيها الزراعة المطرية التقليدية وما زال يراودهم الحنين في الرجوع إلى حياة البداوة مرة أخرى. للقوم تراث عربي أصيل يستحق أن يدرس، وأن ينهل منه وذلك بشهادة السودانيين أنفسهم والكثير من الأشقاء العرب الآخرين الذين تمكنوا من زيارة المنطقة.

ظل القوم بمنأى عن متناول الاستعمار وتأثيره. اختلطوا ببعض القبائل غير العربية بالمنطقة فأدخلوهم الاسلام وتصاهروا معهم. ولكن ظل التراث العربي كما هو قويا أصيلا. هم في ترحال، في ظعن دائم بإبلهم وأبقارهم وأغنامهم طلبا للماء والكلأ تماما كبدو الجزيرة العربية إبان الجاهلية أو صدر الاسلام. لم تستهوهم حياة المدن والمدنية كثيرا وما زالت نسبة الامية بينهم تفوق الثمانين بالمئة ولكن نسبة الوعي بما يدور حولهم عالية إذا ما قيست بالأميين في أماكن أخرى من العالم.

حياتهم بسيطة، ومجتمعاتهم مفتوحة لابداء الرأي والتعبير عن النفس. يجيدون الوصف والبلاغة في القول والدقة في التعبير. معظمهم بالفطرة شعراء يحسنون القول، فالرجل والمرأة والشاب والفتاة كل منهم يعبر عن نفسه كيف يشاء والبقاء للقول السديد الذي يجد رواجا وسط القوم على نطاق أراضيهم الشاسعة. يجيدون وصف الدار وبكاء الأطلال ومحاسن الخيل والابل والبقر وحياة الترحال والبيئة من حولهم.

الغرض من هذا البحث ليس إبراز تاريخ وأصالة قوم، فهذا مجال ثانوي آخر. ولكن الغرض الأساسي هو محاولة البحث عن الحقيقة، البحث عن الكلمة والتعبير العربي الأصيل وسط اللهجة العامية المتداولة والتي ربما بمجهود قليل تصلح لأن تكون مصطلحا أو تعبيرا دقيقا مفهوما لحل بعض قضايا التعريب : ومع أني جمعت وغربلت وقومت الكثير من الألفاظ إلا أني سأحاول فيما بعد سرد بعض الأمثلة فقط. والمجهود برمته مجرد محاولة لانشاء قاموس أولي مختلط في شتى أوجه الحياة، وقد قررت لجنة التعريب السودانية دعم المشروع. هذا وإني لم آت بجديد، فالمحاولة كلها ليست بأكثر مما يأخذ فم العصفور من ماء المحيط. وقد قال لي أحد القوم : كلام العرب كثير، فإن أردت أن تُحْصِيهُ فخير لك

أن تَحْسِب رمال الصحراء.

خلفية تاريخية :

قبائل فزارة وجهينة وكنانة وخزام لها جذور تاريخية بجزيرة العرب. وتعد قبائل فزارة وجهينة أحدث القبائل التي دخلت السودان (حوالي القرن الخامس عشر الميلادي). « ماكمايكل » (1911 م) في كتاب بعنوان « قبائل كردفان » نسب قبائل فزارة إلى عرب جنوب الجزيرة العربية بينما نسب جهينة إلى قبيلة تغلب. نزحت فروع من القبيلتين إلى بلاد شمال افريقيا بعد الفتوحات الاسلامية. ثم تفرعت قبائل فزارة إلى عدة فروع. بعضها بقي شمال الصحراء الكبرى : في صحراء مصر الغربية وليبيا وبلدان المغرب العربي، بينما هاجرت الأجزاء الأخرى إلى السودان وشمال تشاد والنيجر ومالي وموريتانيا، واستقروا بإبلهم وأغنامهم في الجزء الصحراوي وشبه الصحراوي بتلك المناطق. وتنقسم قبائل فزارة بالسودان إلى عدة قبائل منها : الكبابيش والكواهلة والحمر ودار حامد والمرامرة والشنابلة والمجانين وغيرهم. وقبائل فزارة داخل السودان أو خارجه هي من أكثر القبائل التي تأثرت بموجة الجفاف والتصحر في افريقيا، إذ جف الزرع والضرع وبعضهم فقد كل شيء والبعض الآخر في السودان نزح جنوبا فاختلط بقبائل جهينة والتي كانت أكثر حظا من فزارة.

أما قبائل جهينة فيقال أنها تحركت من أواسط الجزيرة العربية إلى شمال افريقيا ثم عبرت بعض فروعها الصحراء الكبرى عن طُرُق الواحات. بعضهم دخل الجزء الشمالي من تشاد واستقر بها والبعض الآخر دخل السودان. وما زالت قبائل جهينة وبنفس أسماء قبائلها في بلاد شمال افريقيا وتشاد والسودان.

أما الذين دخلوا منهم السودان فكانوا أبناء عبد الله الجهني (أو الجهيني) واستقروا أولا بسلطنة الفور في جبل مرة بغرب السودان. فقد وجدوا أمامهم قبيلة خزام التي سبقتهم إلى المكان وتصاهرت مع الفور إذ تزوج زعيمهم ابنة السلطان.

وقد ذكر ماكمايكل (1911) أن أحد الجهينيين واسمه « القريشي فَنْ »(*) أمه أخت زعيم قبيلة خزام كانت له ناقة جميلة لم تلد النوق مثلها إذ كان الحليب يتدفق من ضرعها أثناء رعيها. وكانت لا تحب أن تخرج للمرعى مع الابل الأخرى بل كانت تحبذ الرعي داخل حيشان سلطان الفور. وقد نبه سلطان الفور القريشي فَنْ إلى فعل ناقته. لكن الناقة كانت جميلة ومحبوبة بين القوم وجريئة في أفعالها فكررت دخولها إلى ذات المكان. فقام زعيم خزام بتحذير ابن أخته القريشي فَنْ مِنْ مَغَبَّةِ فعل ناقته العجيبة لكنها تحينت الفرصة وذهبت مرة أخرى إلى مكان سلطان الفور، فقام خاله زعيم خزام بعقر الناقة.

جاء القريشي فَنْ يسأل عن ناقته وقد افتقدها. لقي خاله زعيم خزام وسأله عن الناقة. فرد عليه بقوله : اسمع يا ولد ناقتك دخلت بحور الوبل، لا أب ولا عم يجيبها ليك. عندها فهم القريشي فن أن ناقته قد غُدِر بها، فقال كلمته الشهيرة التي يحفظها كل جهيني :

السايـــر عطيـــه
والمقيم حيمـــــاد
والدخـــان البتلتـــل داك
عيـــال راشد الـــولاد
تـــاكل ناقتـــي أنت
يناالخزامـــى الـــزاج

(*) اسم الشخص.

وهذا معناه أن له أهل وليس لخاله لا أهل ولا وطن.

ثم دارت رحى الحرب بين عيال عبد الله الجهيني من جهة وتحالف خزام مع الفور من جهة أخرى، انتصر فيها الجهينيون انتصارا كاسحا دكت على إثره سلطنة الفور وتفرقت قبيلة خزام على أيدي سبأ ولم تبق منها اليوم إلا مجموعات صغيرة تعيش وسط الجهينيين. لاحظ وجه الشبه بين هذه الحادثة وبين حرب البسوس قبيلة الرسالة بين بكر وتغلب والتي استمرت أربعين عاما.

من ثم بقي عيال حيماد (الحيماديون أو الحوامدة أو أولاد حميد) وهم التعائشة والهبانية وبنو هلبة داخل اقليم دارفور. أما عيال عطية (العطويون أو العطاوة) وهم الرزيقات والمسيرية والحوازمة فقد ظعن الأخيران إلى أرض كردفان وبقيت قبيلة الرزيقات داخل دارفور أيضا. وأما أبناء راشد الولاد (وقد كان كثير العيال) فقد بقوا داخل دارفور. وقد ظعن جزء من الحيماديين إلى كردفان حيث تحالفوا مع الحوازمة فأصبح يطلق عليهم اليوم اسم الحلفاء أو أولاد حميد. ويقال أيضا أن أبناء عمومة عيال عبد الله الجهني وهم الشكرية عبروا النيل الأبيض شرقا واستقروا بمنطقة ما بين النيلين بينما استمرت فروع منهم في طريقها فعبرت النيل الأزرق إلى أرض البطانة في شرق السودان حيث طاب لهم المقام. والشكرية يتحدثون لهجة مماثلة لبقية الجهينيين.

معظم الجهينيين تركوا بالتدرج تربية الابل واستعاضوا عنها بالبقر لتتناسب مع طبيعة مناطقهم والتي هي طينية بالدرجة الأولى. ولكن ما زال بعضهم يحتفظ بنوقه. فهنالك مثلا بين الرزيقات من هم أهل الناقة ومن هم أهل البقرة.

ملاحظـات

ا. كل أفراد قبائل فزارة تتحدث لهجة واحدة وكل أفراد قبائل جهينة تتحدث لهجة واحدة أيضا.

ب. قبائل فزارة تقول : آني وأعطي بينما تقول قبائل جهينة : أنا وأنطى. أما خزام وكنانة فكلاهما يقول : أني وأدّى.

ج. الفزاريون يحبون الابل ويجيدون الحُداء، أما الجهينييون فيحبون الخيل والبقر والشعر.

د. الفزاريون هم أهل النوادر ويتكلمون كما يقال عنهم « بالنَّحَوِي »، أما الجهينييون فهم أصحاب الحكم والأمثال ويتحدثون بوضوح وبصوت عال وهم دائما على عجل (يقولون لك : العربي عجول). كنانة وخزام يمطون الحديث ولهم نوادرهم.

هـ. الجهينييون يكسرون معظم آخر الأسماء المؤنثة بتاء التأنيث المربوطة مثل : خديجة وآمنة وحليمة وسعدية وفاطنة وعربية وهندية وعزيزة وهلم جَرا..... بينما ينطقها الفزاريون نطقا صحيحا.

و. والجهينييون هم الوحيدون على نطاق السودان الذين تجيد نساؤهم الزغراد العربي باللسان بينما يتم في باقي السودان بالحبال الصوتية في الحنجرة. ومن بين نساء جهينة من يقلبن الخيل أي زغرودة واحدة وبنفس واحد حتى يلحق الحصان مداه ثم يعكف راجعا.

ز. الفزاريون يحبون حرف الظاء والجهينييون حرف الضاد. فزارة تنطق كل حرف به طاء أو ذال ظاء مثل : ظلع (طلع) وظبح (ذبح)، وجهينة تقلب حرفي الذال والظاء ضادا مثل ضبح (ذبح) وضلع (ظلع).

ح. كل هذه القبائل تكثر من تصغير الأسماء إما

بغرض التحلية أو التحقير.

ط. يلاحظ أيضا أن الجهينيين هم الوحيدون على نطاق السودان أيضا الذين ينطقون الاسم الثلاثي ساكن الوسط نطقا صحيحا (دون كسر الحرف الثاني) فيقولون : كلْب، سرْج، زرْع، ضبْع، قلْب، كبْش، زنْد، ألْف، جنْح، فرْخ، عرْف، صلْب، سمْح،.....الخ.

ي. يشتهر الفزاريون بكثرة السطو المسلح (الهمبتة) بينما تشتهر قبائل جهينة بالحروب القبلية الناجمة عن الثأر حيث تلعب نساؤهم دورا بارزا في إذكاء الفتنة وإشعال أوار الحرب. ولهذا السبب تجد الشباب من أبناء جهينة أكبر عماد للجيش السوداني.

ك. ولا ننسى أن هنالك قبائل أخرى بالسودان لها جذور عربية ولكنها دخلت السودان بطرق أخرى واستقرت في أماكن أخرى ولها لهجاتها التي تختلف عن لهجة هؤلاء القوم مثل : الشايقية والجعليين والرباطاب وغيرهم وهذه أتت عن طريق النيل وتسكن ضفافه في جوار مع النوبيين في الشمال، ولكل لهجتها الخاصة وهنالك أيضا قبائل الرشايدة والزبيدية وغيرهم في شرق السودان وقد أتى أجدادهم عن طريق البحر الأحمر.

ل. ولنا أيضا أن نتذكر أن جنوب وأواسط الجزيرة العربية والسودان يقع في خطوط عرض واحدة. والبيئتان مداريتان مشابهتان يفصل بينهما البحر الأحمر. وقد كانت تلك المناطق بالجزيرة العربية في الماضي مناطق سافنا ذات أمطار موسمية ولكنها تصحرت بفعل الزمن. من ثم فإن الأسماء البيئية بالجزيرة العربية قد طبقها هؤلاء القوم بحذافيرها في السودان. ثم تغيرت البيئة بجزيرة العرب واندثرت معها تلك الأسماء لكنها بقيت في السودان رغم أنها أيضا في طريقها للاندثار بفعل التحولات البيئية. وقد لوحظ أن الأشياء التي لم يألفها القوم من قبل ولم يجدوا لها أسماء عربية أسموها وصفيا. فيقولون أبو كذا وأم كذا بمعنى ذو وذات وهذه كثيرة جدا.

من هنا فإن دراستي للكلمة والتعبير وسط هؤلاء القوم قد شَمِلَت ما يقولون عن :

أ. البيئة وبها

1. السماء وبها :

أ. الأجرام السماوية
ب. السحب والغيوم
ج. البروق
د. الرعود
هـ. المطر
و. الفصول السنوية
ز. أوقات اليوم

2. الأرض وبها :

ا. أنواع الأراضي والتربة والغاب
ب. مجاري ومحابس وموارد المياه
ج. أسماء بعض الأماكن
د. الأشجار والشجيرات والخشاش والقش
هـ. الحيوان :

الحيوانات الأليفة : الخيل والبقر والابل والغنم والكلاب والدواجن.

الحيوانات الوحشية : بما فيها الطيور بأنواعها.

3. الانســـان :

أ. كلمات في وصف الانسان وأفعاله
ب. الاسم واللقب والكنية

ج. البلاغة في التعبير والحكم والأمثال
د. النوادر والدقة في التعبير
هـ. الزراعة
د. الظعن أو المسار
ز. الشعر والفن الغنائي :
1. شعر الهدّاء
2. الجرداق
3. البوش أو البوشان
4. شعر البرامكة أو الحرفاء
5. شعر الحكامة أو الحكيمة الراقص
6. شعر الفتيات الغنائي الراقص
7. شعر القيدومة (السهار)
8. شعر الزفاف الغنائي الاستعارضي.
4. كلمات أخرى متداولة.